الاغتراب ومتاهة الذات، رؤية فلسفية

في كتاب الفلاكة والمفلوكون لأحمد بن علي الدلجي

إعـــــــداد

د. إيمان محمد محمد عمران

مدرس الفلسفة الإسلامية

قسم الفلسفة والاجتماع

كلية التربية – جامعة عين شمس

المستخلص:

تسعى الدراسة إلى تأكيد أهمية كتاب الفلاكة والمفلوكون للدلجي، ودوره المهم في التأصيل لمفهوم الاغتراب وأنماطه وسلوكياته، والتأكيد على حرية الإنسان، ودور الفيلسوف الإصلاحي.

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة إشكالية الاغتراب أو بتعبيره هو الفلاكة، عند الفيلسوف والفقيه المصري الدلجي" ، من خلال عرض وتحليل أهم مواقفه الفلسفية الراصدة للاغتراب في العصر المملوكي؛ والنظر في مسبباتها من وجهة نظره، ومدى مطابقة هذه الرؤى للمفاهيم للفكر الحديث.

سعت الدراسة إلى التأكيد على دور الدلجي في معالجة مشاكل مجتمعه الفلسفية والاجتماعية والنفسية، من خلال رصده للتراجع الحضاري، الذي نتج عن أمراض المجتمع المملوكي، سلطة، وأفرادًا.

أكّدت الدراسة على أسبقية الدلجي في الفكر الإسلامي بوصفه فيلسوفًا اهتم بدراسة الاغتراب، ومفهومه في الفكر الإسلامي من خلال كتابه المرتبط بظروف عصره، وبيئته المملوكية.

اعتمدت الدراسة المنهج السردي الوصفي، التحليلي، وقسمت الدراسة لعدة مباحث، انتهت إلى النتائج التي تؤكد دور الدلجي في التأصيل لمفهوم الاغتراب في الفكر الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: العقل، الفقر، اللغوي، الديني، الاضطراب.

Abstract

The study seeks to confirm the importance of Al-Dalji's book Al-Falaqa and Al-Maflokon, and its important role in rooting the concept of alienation, its patterns and behaviors, emphasizing human freedom, and the reformist role of the philosopher.

This study aims to address the problem of alienation, or in its expression, the falaka, according to the Egyptian philosopher and jurist Al-Dalji, "by presenting and analyzing his most important philosophical positions observing alienation in the Mamluk era, and examining its causes from his point of view, and the extent to which these visions match concepts to modern thought.

The study sought to emphasize the role of Al-Dalji in addressing the philosophical, social and psychological problems of his society, through his monitoring of the civilizational decline, which resulted from the diseases of the Mamluk society, the authority, and individuals.

The study confirmed the primacy of al-Dalji in Islamic thought as a philosopher who was interested in studying alienation and its concept in Islamic thought through his book related to the conditions of his time

Key Words: Reason, poverty, linguistic, religious, turmoil.

مقدمة:

شغلت أزمة الإنسان ووجوده في الكون عقول الفلاسفة والمفكرين والأدباء عبر كل العصور ، فمنذ بِدء الخليقة كان الإنسان يعاني من أزمة وجودية، تُشكِّل وجوده، حياته، قيمه وأفكاره، تهدم حضارات، وتقيم حضارات أخرى، كانت أزمة الإنسان شديدة نفسيًا واجتماعيًا وروحانيًا؛ لذلك قامت دراسات عميقة تحاول الوصول إلى جوهر أزمته الحقيقية ومن ثم وضع حلول لها، تسمح للإنسان بالتكيف والتعايش الآمن وسط محيطه الاجتماعي.

كان من أبرز أولئك الذين اهتموا بالإنسان وجوهر أزمته في الفكر الإسلامي الفيلسوف المصري الدلجي، الذي عاش في العصر المملوكي، وعاصر العصريين المملوكيين، المماليك البحرية، والبرجية " الجراكسة" وفي ظل معاصرته لهذا العصر المضطرب، لمس أزمة الإنسان وغيابه أو اغترابه عن محيطه الاجتماعي، وقبل غيابه عن محطيه الاجتماعي رصد غيابه عن ذاته، أو ما يعرف حديثًا بالتشظي الإنساني والتشيؤ، وكيف لهذه الحالة أن تؤثر سلبًا في حياة الأمة بأكملها، بوصف الإنسان هو العنصر الرئيس داخل المجتمع.

خصص الدلجي كتابه الفلاكة والمفلوكون لدراسة الذات الإنسانية المغتربة، التي تعاني حالات العوز المادي والمعنوي، التي تقف عند حاجز اليأس عاجزة عن التكيف مع المجتمع بسبب تلك الظروف القاسية، التي يفرضها هو على نفسه أو يفرضها الواقع من حوله عليه، وفضّل الدلجي أن يسمي المغترب مفلوكًا، والاغتراب بكل أنواعه فلاكة، وهي من وجهة نظره لفظة تحمل كل المعاني التي تشير إلى العوز والعجز والإملاق بكل صوره، اختارها ليؤكد رؤيته تجاه إنسان عصره، الذي يعاني، وجعل نفسه واحدًا من هؤلاء المفلوكين أو المغتربين الذين يتألمون ويتوجعون من حالات الانسلاخ عن الذات والمجتمع.

سعت الدراسة إلى الوقوف أمام كتاب الفلاكة والمفلوكون لدراسة ظاهرة الاغتراب في الكتاب، الاغتراب بكل صوره وأنماطه وسلوكياته، التي عرض لها الدلجي وصوَّرها من خلال الرصد والوصف والتحليل، والتأويل؛ لتتوصل إلى حقيقة المُؤلف وأسباب تسميته، ومدى تأثير حالة الانسلاخ أو التشظي والتشيؤ في اختيار عنوان الكتاب، ومادته التي أراد فيها التعبير عن أوضاع المفلوكين، ومسببات الفلاكة، ومنتجاتها التي تؤثر بالسلب في الإنسان والأمة، والحضارة.

تمثلت مشكلة الدراسة في محاولة الكشف عن مفهوم الفلاكة، ومدى تقاربها مع مفهوم الاغتراب الفلسفي في العصر الحديث، والوقوف أمام الأبعاد المسببة للاغتراب " الفلاكة " الإنساني في القرن الخامس عشر الميلادي عصر دولة المماليك، ومعرفة أهم النماذج المعبرة عن شخصية المفلوك أو المغترب في دولة المماليك، إبان عصر الدلجي.

جاءت تساؤلات الدراسة كالتالي:

- ما مفهوم الفلاكة؟ وما مدى ارتباطاها اللغوي بمفهوم الاغتراب؟
- ما الأبعاد، الفلسفية، الدينية، السياسية، والاجتماعية لمفهوم الاغتراب عند الدلجي؟
- كيف عبّرت الثقافة المملوكية عن مفهوم الفلاكة أو الاغتراب؟
- هل كان الدلجي زنديقًا كما وصفه البعض، أم كان مفلوكًا مغتربًا يسعى للتمرد على مسببات الفلاكة " الاغتراب"؟

تهدف الدراسة إلى الكشف عن دور الدلجي في تعريف مفهوم الاغتراب أو ما أطلق عليه هو الفلاكة، ووصف كل ما يتعلق بهذا المفهوم، وتأثيراته في الفرد والمجتمع، كما هدفت إلى ارتباط الرؤية المنهجية لمؤلف الدلجي وظروف عصره المضطربة، شديدة التعقيد، وكذلك ظروف حياته الشخصية التي أثرت فيه بصورة كبيرة، ودفعته إلى

الانتساب إلى المفلوكين أو المغتربين، وهذا يعني شدة اغترابه أو تجاوبه العكسي مع ظروف عصره؛ حتى صار إنسانًا تتحكم فيه منتجات عصره.

اعتمدت الدراسة عدة مناهج تساعدها على الوصول إلى هدف الدراسة، فاعتمدت المنهج السردي الوصفي التحليلي، وذلك في العرض، وعولت على المنهج النقدي في المعالجة، للتأريخ لحياة الدلجي وظروف عصره، وتأويل واستنباط ما يمكن استنباطه وتأويله منها؛ لذلك قُسمت الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: حياته وعصره

المبحث الثاني: معنى الاغتراب ومفهومه

المبحث الثالث: الاغتراب اللغوي

المبحث الرابع: اغتراب العقل

المبحث الخامس: أشكال الاغتراب ومآلاته:

أ- الاغتراب السياسي.

ب- الاغتراب الاجتماعي.

ج- الاغتراب الاقتصادي

د- الاغتراب الديني

المبحث السادس: سلوكيات الاغتراب

وجاءت الخاتمة جاءت الخاتمة لتثبت ريادة الدلجي في الفلسفة التقدّم بعامة وفلسفة التاريخ بخاصة وقراءته المبكرة لأثر الاغتراب في ثقافة عصره

حياته وعصره

يعد أحمد بن علي الدلجي مؤلف كتاب الفلاكة والمفلوكون شخصية غامضة نوعًا ما، فالتاريخ لا يحدثنا عنه كثيرًا، ولا توجد سوى إشارات قليلة عنه، مما دفع البعض إلى الخلط بينه وشخصية أخرى تلقب أيضًا بالدلجي، لكنّ الدلجي مؤلف كتاب الفلاكة والمفلوكون ولد " (770؟ – 838 هـ = 1368؟ – 1435 م، واسمه أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدلجي: فاضل مصري، له اشتغال بالفلسفة([1])

فهو كما ذكره مؤلف كتاب الدارس في تاريخ المدارس " الشهاب أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي المصري ثم الدمشقي الشافعي اشتغل بمصر وفضل في النحو وغيره من العلوم العقلية ثم توجه إلى طرابلس، فأقام بها يسيرا ثم قدم دمشق حوالي سنة ثماني عشرة وثمانمائة ولزم القاضي نجم الدين بن حجي وحظي عنده، ثم أبعده وحكم بإراقة دمه، وكان فاضلًا في المعقول وعبارته صحيحة فصيحة ودرس بالأتابكية نيابة عن ابن البارزي وجلس للاشتغال بالجامع مدة يسيرة وتوفي رحمه الله بالقاهرة في شوال سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة([2]) فهو شخصية عرفت بالعلم والفكر في عصرها؛ لكنها كعادة الكثيرين اتهمت بالكفر والزندقة، وأبعدت من الساحة، ولا نستطيع أن نجزم بصدق ما قيل عنه من تهم الكفر والزندقة، وذلك لكونها تهمًا رائجة تطلق في حالات الخلاف الفكري، ويروج لها، خاصة إذا كان الذي يلقي التهم صاحب سلطان وجاه علمي أو سياسي، كما أن كتابه خلا تمامًا مما يدل على كفره وزندقته، فالكتاب يشهد له بالصلاح والتدين، والنطق بالشرع الإسلامي.

---

[1]) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ) الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 مج1،، ص: 177

[2]) عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى: 927هـ) المحقق: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى 1410هـ – 1990م، ج1، ص: 109

ينسب أحمد بن علي إلى بلدته " دلجة (من صعيد مصر)([1]) وقرية دلجة تقع في محافظة المنيا الحالية، جنوب غرب المنيا بحوالي 70 كم تقريبًا، ضمن مركز دير مواس، وهي قرية كبيرة، تعد أكبر قرى محافظة المنيا، وتتميز بالطابع العملي، فيعمل غالبية أهلها بالتجارة، ونادرًا ما تجد المقاهي عامرة بالناس إلا في ساعات الراحة من العمل، فهم يعيبون الجلوس على المقاهي. يغلب كذلك على أهلها الانضباط الديني، ويميلون للمذهب الحنبلي، ولا تنتشر الصوفية بينهم على خلاف قرى صعيد مصر، لا يعرفون الطرق الصوفية، ولا يهتمون بفكرة الأضرحة الدينية([2]) وربما تساعدنا سمات القرية التي وُلد فيها الدلجي على تفسير بعض الصفات التي عُرف بها أو وُصف بها، أو حتى اتهم بها، خاصة في أمرين: الأول: معادته للصوفية فيصفه النعيمي " وقدم دمشق وباشر ذلك مباشرة مذمومة وآذى الصوفية بها([3]) وقد تكون معاداته للصوفية نابعة من الطبع الغالب على بلدته التي ولد ونشأ فيها. الأمر الثاني: كثرة انتقاده للناس أو لأفعالهم في زمانه، " وكان مستنقصًا للخلق مستزريًا بهم([4]) وهذا الأمر يرتبط بأمرين، الأول رفضه للاستسلام للفقر أو القهر، ورغبته الدائمة في رفض أفعال المماليك الجراكسة، الذين كانوا يحكمون مصر، وكانت هذه الصفة الرافضة للفقر، للقهر والظلم صفة أصيلة في الدلجي، وذلك واضح من مؤلفه الفلاكة والمفلوكون، وكما ذكرت سابقًا أن رفض الاستسلام صفة أصيلة من صفات أهل بلدته " دلجة " ولا تزال هذه الصفة تميزهم.

الواقع السياسي والاقتصادي في عصر الدلجي:

لا ينفصل الإنسان عن عصره مطلقًا، فكل إنسان يحيا في عصر يكون جزءًا أصيلًا من هذا العصر، سواء كان بالانسجام معه، أو الرفض له والاعتراض على ما فيه، فالظروف السياسية والاقتصادية تؤثر في الرعية بصورة كبيرة؛ خاصة إذا كانت تلك

[1]) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي الأعلام، مج1،، ص: 177

[2]) هذه معلومات استقتها الباحثة من زيارة لقرية دلجة في صعيد مصر

[3]) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص: 110

[4]) المرجع السابق، ص: 110

الظروف قاسية مليئة بالقلاقل والفتن والاضطرابات، كما كان زمن حكم المماليك الجراكسة، الذين حكموا مصر والشام قرابة قرن ونصف من الزمان، تلك الحقبة التي ولد فيها أحمد بن علي الدلجي، ونشأ وترعرع، وقضى كل حياته فيها، فكما يذكر المؤرخون كانت تلك الحقبة التي عاش فيها الدلجي مليئة بكل بأنواع الاضطرابات، ففي عصر السلطان الناصر أبي السعادات فرج بن برقوق 1399 : 1412م انتشر الخراب والتدمير " لقد كانت مدة حكمه تعسًا وشقاء، فإن فظائع تيمور، ودوام الثورة في القاهرة، واستمرار أمراء سوريا، في مشاحنات لا تنتهي فيما بينهم وبين السلطان، كل هذا مع ما مُنيت به البلاد من الوباء، والقحط أنقص السكان – كما يقال – إلى نحو ثلث عددهم، وجعل الحياة عبئًا ثقيلًا، وكذلك مهاجمة الفرنجة للإسكندرية، وإغارتهم على سواحل سوريا، بجانب الارتباك الحاصل آنذاك، وأكثر من هذا شناعة في نظر رجال الدين أن فرجًا ضرب سكة للمملكة وجعل عليها صورته، فكان هذا في نظرهم احتقارًا للشريعة، ويُعزى إليه وحده، من بين الأسرة الطويلة من طغاة مصر سوء الحكم الذي كان ظالمًا قاسيًا مخالفًا للشرع"([1]) في ظل مثل هذه الأجواء عاش الدلجي مراحل شبابه واكتمال نضجه الفكري، وتذوق مرارة غياب الأمن، وانتشار الفقر والعوز، واضطراب الأحوال، مما جعله في حالة شعور دائم بالاغتراب، الاغتراب بكل صوره، ولم يستطع أن يهرب من مأساة عصره، بل انغمس فيه، وعاني من جراء التقلبات التي أصابت حتى الأنفس البشرية التي توحدت مع ظروف عصرها، فاكتسى بطابع السخرية والاستهزاء من ذلك الواقع، وتميز أسلوبه كما – وصفه الزركلي– " وكان منتقصًا للناس كثير الاستهزاء بهم"([2]) لقد كان الانتقاص أو الاستهزاء ناتجًا عن الإحساس بالعجز في ظل تلك الظروف القاسية، ومع الإحساس بالعجز، والفقر، والعوز يتحول الإنسان إلى ساخر، منتقص من كل شيء؛ حتى نفسه.

---

[1]) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عبادين، سليم حسن، مكتبو مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م ص: 137: 138

[2]) الزركلي، الأعلام ج1، ص: 177

استمر الاضطراب وانتشار الأوبئة في زمن السلطان المؤيد شيخ، رغم سعيه في الإصلاح، ورغم ثناء الدلجي عليه والدعاء له " اللهم إلا أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها، فهو الذي عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقهره وإحياء معالم العلم شرعه وشعره، أبقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه ما بين المشرقين"([1]) كان هذا الدعاء يؤكد الحالة السيئة التي عاش في ظلها الدلجي، فهو يتمنى عودة الأمن والازدهار والتقدم في زمن الملك المؤيد الذي حكم دولة المماليك من عام 1412 م : 1424م، لكن أمنيات الدلجي لم تتحقق، ففي عصر المؤيد " جدد الفرنجة الغارة ثانية على الإسكندرية وعادوا بأسرى كثيرين وغنائم، وتفشى الطاعون في مصر مرة أخرى، وحل الجفاف، وقل ماء النيل"([2]) فواصل الاضطراب والجفاف تأثيره في المناخ السياسي والاقتصادي والديني في مصر والشام.

إن تلك الظروف القاسية التي عاش في ظلها الدلجي تخلق مواطنين يعانون الخوف والقلق، الذي يخلق بداخلهم الشعور بالاغتراب، ذلك الاغتراب الذي يخلق سلوكياتهم، ويكون أفكارهم، ويشكل رؤيتهم العامة والخاصة للحياة، وهذا ما خلق الشعور بالاغتراب داخل الدلجي، وبثه في كتابه " الفلاكة والمفلوكون " والشعور بالاغتراب، كان متنوعًا داخل الكتاب، يعكس حالة التشظي التي بات يحياها ويمارسها، ويرفضها الإنسان المصري في ظل حكم المماليك الجراكسة.

معنى الاغتراب ومفهومه

سنعرض سريعًا لمفهوم الاغتراب بعيدًا عن التتبع اللغوي والاصطلاحي للكلمة، ومعناها في اللغات الأخرى خاصة اللاتينية والإنجليزية، إنما سنهتم مباشرة بالمفهوم العام لها، وما يتفق مع ما قصدته الدراسة، فالاغتراب Alienation تفيد قابلية الأشياء

[1]) أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدَّلْجي المصري (ت: 838هـ)، الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر عام: 1322، ص: 50

[2]) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك الجراسكة في مصر، ص: 143 : 144

والممتلكات بل والبشر أنفسهم للتنازل أو البيع والاغتراب من خلال هذا المعنى القانوني يتضمن ما يمكن تسميته بـ تشيؤ Reification العلاقات الإنسانية، أي تحول الموجودات إلى أشياء أو موضوعات جامدة، وهنا يصبح الإنسان مجرد سلعة قابلة للبيع أو الشراء ويفقد قيمته المتعالية كإنسان."([1]) فالإنسان وفق هذا التعبير يتم تحويله إلى سلعة، تباع وتشترى من قبل من يملك السلطة في ذلك، ويعد هذا من باب التعريف القانوني للاغتراب.

كذلك يُعرَّف الاغتراب بأنه " عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني والاجتماعي إلى شيء مستقل عن الإنسان ومتحكم فيه"([2]) فيخضع الإنسان للسلطة القاهرة، أو للرغبات المحمومة التي تهيمن على ذاته في حقبة من الحقب، تجعل الإنسان لا يسير وفق إنسانيته إنما وفق حيوانيته التي تهمين عليه، وفي ظل هذه الظروف يزداد الاغتراب حتى يصل إلى مرحلة الانسلاخ والقطيعة من كل مقومات الذات الإنسانية، فلا يعبأ الإنسان بشيء أو لشيء وتتملكه الغريزة ويصير عاجزًا عن الفعل؛ ليتحول إلى رد فعل لكل ما يحيط به.

وفي السطور القادمة سنستعرض بعض أراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين الذي عرفوا الاغتراب، محاولين أن نقف عند عناصر التلاقي بين الاغتراب في الفكر الحديث والاغتراب عند الدلجي.

فعرّف هيجل الاغتراب بأنه " انفصال الجزء عن الكل، ويحدث هذا عندما يقوم العقل المطلق بخلق الطبيعة والإنسان، فهو بذلك قد طرح جزءًا منه خارجًا وأصبح هذا الجزء غريبًا بعيدًا عنه وهذا ما يطلق عليه اغتراب الوعي عن عالم الطبيعة ، وانقسام الذات

[1]) د حسن حماد، الإنسان المغترب عند إريك فروم، دار الكلمة، 2004م ص: 63

[2]) مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، 2007م، ص: 75: 76

عن الموضوع"([1]) وكأن هيجل يشير إلى تعدد الذوات الفاعلة داخل النفس الإنسانية، التي تغترب عن وعيها.

"أما سارتر فقد تناول مفهوم اغتراب الذات من خلال معايشة الفرد لذات أخرى بعيدة هي تلك الذات التي تفرضها نظرة الآخر؛ لذلك فإن الاغتراب عن الذات يتضمن وعياً مؤلمًا بغياب ذات الفرد، فإن الاغتراب الذي يذكره سارتر يُطرح باعتباره يواجهنا لا بتناقض يجب التغلب عليه، وإنما بحقيقة حول أنفسنا يتعين علينا إقرارها وبهذا يكون سارتر أوضح نمطًا مهمًا من أنماط الاغتراب ألا وهو اغتراب الذات"([2])

ويذهب كارل ماركس إلى الرؤية الاقتصادية في مفهوم الاغتراب فالإنسان يتحول إلى سلعة في يد الرأسمالية، فالإنسان العامل صار ينتج لا من أجل متطلبات الطبيعة والحياة، إنما من أجل زيادة رأسمال المال، ومن ثم فلقد صار الإنسان سلعة في يد الرأسمالية التي أفقدته ذاته"([3])

أما جان جاك روسو فقد ذهب إلي أن الاغتراب هو ابتعاد الإنسان عن طبيعته الأصلية التي يمكن أن تكون إما أصوله البدائية أو طبيعته الجوهرية الثابتة."([4])

لا تختلف تلك التعريفات السابقة للاغتراب عن رؤية الدلجي لمفهوم الفلاكة " الاغتراب" فالفلاكة في بعض معانيها عنده تتفق ومفهوم كارل ماركس للاغتراب القائم على هيمنة الرأسمالية ، "أعلم أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير غرض ولا علة لأن المتعالي عن وجوب تعليل أفعاله بالأغراض والمصالح إنما هو الله تعالى ...، فكما أن الشخص لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه كذلك لا يضع ماله في

---

1) هيغل، اصول فلسفة الحق، ترجمة وتقديم وتعليق د.امام عبد الفتاح امام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.ص 84

[2]) سارتر الوجودية مذهب انساني ترجمة عبد المنعم الحفني مطبعة الدار المصرية 1964 ص69

[3]) كارل ماركس، فريدريك انجلز، حول الدين، ترجمة زهير الحكيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، 1974.

[4]) راجع في ذلك د: محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، ط3، 1988، ص: 58 : 59

يد إنسان ولا غرض له فيه"[1] فكلام الدلجي يؤكد أن صاحب المال أو الرأسمالي دومًا يسعى لتحقيق مصالحه من المفلوك – الذي يوازي العامل في فكر كارل ماركس –إما بالهيمنة المعنوية أو المادية، فيصير المفلوك – المغترب – سلعة في يد الأغنياء يبيعونه أو يشترونه وقتما يشاءون وفق مصالحهم.

لا بد أن تتحرك بواعث الإنسان كي تتحقق عليه السيادة ويصير مغتربًا كليًا، لذلك " فبخضوعه وتملقه تظهر سيادتهم وعزهم"[2] إن هذه الرؤية تساير رؤية كارل ماركس في نظرته تجاه الرأسمالية المتوغلة في المجتمعات الحديثة، التي تريد خلق إنسانًا مغتربًا في حالة احتياج دائم لها، متنازلًا عن ذاته خاضعًا لعمليات التسليع. إن مفهوم الدلجي للاغتراب – أو كما يسميها الفلاكة – هو مفهوم قريب الصلة من الرؤية الماركسية للاغتراب، وهذا يؤكد حالة التقارب بين العصر المملوكي في القرن الخامس عشر الميلادي بتحولاته الكبرى واضطراباته، وعصر النهضة الغربية .

وفي بعض الآراء يتوافق مفهوم الاغتراب عند هيجل وروسو وسارتر مع رؤية الدلجي في المفلوك، ذلك الذي ينقلب على حاله ووضعه؛ فيتحول إلى غير ذاته، وطبيعته، ويصير خلاف إنسانيته، أو نقيض الإنسانية " وإنما يتميز عن الدواب والحيوان بعلمه وبيانه فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً"([3])

المغترب أو المفلوك بلغة الدلجي هو ذلك الإنسان الذي يفقد ذاته، وإنسانيته، وينقسم إلى عدة ذوات متضادة، لا تعرف التمييز بين الخير والشر، وتسيطر عليه عوامل كثيرة خارجة عنه، وعن رغباته الحقيقية، يتحول معها إلى سلعة تباع وتشترى، فكل ما في حياته لا يخضع له، إنما يتحكم فيه غيره.

---

[1]) أحمد بن على الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 58

[2]) المرجع السابق، ص: 59 : 60

[3]) السابق، ص: 51

وبناء على ما سبق من عرض لمفهوم الاغتراب عند بعض الغربيين والدلجي، سنتعرض أنماط الاغتراب وأنواعه في كتاب الفلاكة والمفلوكون، موضحين كل أنماط الاغتراب التي عايشها الدلجي في مجتمعه المملوكي في القرن الخامس الميلادي.

الاغتراب اللغوي

تهتم هذه الدراسة بظاهرة الاغتراب في كتاب " الفلاكة والمفلوكون " للدلجي، وكيف كانت تلك الظاهرة رد فعل للواقع الحضاري لدولة المماليك خاصة حقبة المماليك الجراكسة، وكيف لعبت ظروف الحقبة السياسية الدور الكبير في خلق جيل المغتربين نفسيًا، اجتماعيًا، اقتصاديًا، سياسيًا، ودينيًا؟! كيف كانت المعاناة الشديدة من جراء هذه الظاهرة هي السمت الغالب في ذلك العصر؟!

كان السؤال الأهم الذي تسعى الدراسة للإجابة عنه " إلى أي مدى لعب النظام المملوكي الدور الكبير في خلق ظاهرة الاغتراب؟ وكيف كانت طبيعة العلاقة بين الإنسان في ذلك الزمان وأنظمة الحكم المملوكي؟

وقد اقتضى هذا التساؤل القيام بمهمة تحليل كتاب الدلجي الفلاكة والمفلوكون، والوقوف على أهم مظاهر الاغتراب فيه، تلك التي تبتديء من عنوان الكتاب، الذي قصد به التعبير عن واقع الشعب المُغرب، وبخاصة تلك الطبقات المحرومة والمهمشة، العاجزة عن المواجهة، أو التحدي، أو حتى الحصول على النجاحات التي تليق بمجهودها وسعيها في الحياة.

جاء العنوان " الفلاكة والمفلوكون " غامضًا أو ملبسًا للغاية، فالكلمة لا وجود لها في المعاجم العربية، لكن من المعروف أنها كلمة دارجة، كان يستخدمها العوام في عصر الدلجي كما ذكر هو في كتابه، فالكلمة تشير إلى الفقر والإملاق، والعجز، وقلة الحيلة، وكذلك الاغتراب بكل أنواعه، لذلك جاء استخدام الكلمة الأعجمية أكثر تعبيرًا عن مقصد الدلجي من أي كلمة عربية أخرى، فيقول الدلجي عن عنوانه " هذه اللفظة تلقيناها من

أفاضل العجم، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال: الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره، وليس في صحاح الجوهري ولا في القاموس المحيط في هذه المادة، فلا يصلح لهذا المعنى إلا قول صاحب القاموس (فلك تفليكا: إذا لج في الأمر) فإنه يمكن أن يجعله مصححًا لهذا الاستعمال.وبيانه أن اللجاج لازم الإملاق، فإنه يلزم من الإملاق وعدم الحظ اللجاج، فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم"([1]) يقرر الدلجي أن لفظة الفلاكة ليست عربية، وإنما مأخوذة عن أفاضل العجم، والوقوف أمام كلمة أفاضل العجم يؤكد ما تذهب إليه الدراسة من أن المؤلف اختار العنوان بهذا الشكل لشعوره بالاغتراب؛ لذلك فضَّله سواء كان ذلك مقصودًا نفسيًا أو غير مقصود، وجاء عبر اللاوعي المتمرد على ثقافته ولغته اللتين صارتا مغتربتين عنها.

ومما يؤكد ما تذهب إليه الدراسة من شعور الدلجي بالاغتراب اللغوي ما جاء على لسانه كذلك " ووجه اختيار لفظ الفلاكة على الفاقة والإملاق والفقر ونحوها أن هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها نص صريح في مدلولها، بخلاف لفظة الفلاكة والمفلوك، فإنه يتولد منهما بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها"([2]) إن تأكيد الدلجي أفضلية كلمة الفلاكة في التعبير من كلمة الإملاق والعوز وغيرها من الكلمات العربية، يؤكد أن الرجل كان لديه شعور بالاغتراب التام عن مجتمعه، ثقافته، فكره، ولغته، خاصة اللغة التي يُعبِّر بها، ويقيم بها علاقته الاجتماعية مع محيطه الاجتماعي، وكأنه كان يقصد خلق حاجز نفسي يؤكد تفرُّده في التعبير عن أولئك الذين أبعدوه عن نجاحاته، ولم يعترفوا به، وإنما تمادوا في بخس حقه، واتهموه بالكفر والزندقة، وسعوا في قتله.

"يعيش الإنسان المغترب كابوسًا لا حلمًا، إنه محاصر ودائرة الحصار تضيق باستمرار؛ فيضطر بفعل اليأس للانشغال بتدبير شؤونه الخاصة، وتحسين أوضاعه

[1]) السابق، ص: 3

[2]) السابق، ص: 4

المعيشية المادية على حساب كرامته وإنسانيته، وطاقاته الإبداعية، لقد سلبته هذه المؤسسات حقوقه وحرياته في السيطرة على إنتاجه في مختلف الحقوق"([1]) عاش الدلجي هذه الحالة كاملة، وحاول أن يخلق لنفسه وجودًا مجتمعيًا؛ لكنه فشل في ذلك، ولم ينجح في التكيف مع هذه الأوضاع، فأخذ في تأليف كتابه، ساعيًا للتمرد على هذا المجتمع، بثقافته الاستبدادية، وانطلق معبرًا عن نفسه المتمردة ابتداء من العنوان الذي يخاصم فيه لغته.

اغتراب العقل (الفلاكة العقلية)

اهتم الدلجي باستعراض كل أنواع الاغتراب أو ما سماها هو بالفلاكة، ونتائجها النفسية والعقلية، فالفلاكة كما تفهمها الدراسة من خلال ما يشير الدلجي إليه، هي الإملاق والعوز الذي يقودنا إلى الاغتراب أو عوارض المفلوك كما سماها الدلجي، وهي الشعور النفسي الذي يشعر به المغترب " المفلوك " فالإنسان " إذا لم يستطع تحمل العيش وحيدًا، فيستسلم ويخضع لسلطة هذا المجتمع سواء كانت سلطة سياسية أم سلطة عادات وتقاليد وأخلاق سائدة؛ ليتحول هذا الإنسان إلى آلة بشرية، يتنازل تماما عن فرديته؛ فيصبح مغتربًا عن ذاته الأصيلة، مكتسبًا ذاتًا جديدة زائفة– يمليها المجتمع – ويصبح بذلك متشيئًا"([2]) ومع هذا التشيؤ يفقد الإنسان قدراته العقلية، ويشعر بآلام شديدة، تقوده تلك الآلام إلى الانفصام العقلي التام عن المجتمع بكل ما فيه.

" ومنها أن الفلاكة مهما استولت على عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلام عقلية، ولا شك أن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني؛ ولذلك يكون التعب القلبي أشد

[1]) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م ص: 8

[2]) لزهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظور الغربي والعربي، دار الخلدونية، 2013م، ص: 102

إنهاكاً للبدن من التعب الجسماني؛ ولذلك يتحمل عظيم المشاق البدنية خوفاً من العتب والتوبيخ والملامة والتقريع كما أن اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية"([1])

عندما يشعر الإنسان بالاغتراب، ينفصم عن واقعه، يبدأ في مرحلة الاغتراب العقلي، تلك المرحلة الذي تستبد بالمغترب آلام العقل، والعجز عن التفكير العلمي الموافق للفكر والقيمة الإنسانية، ومع هذا العجز تتوالى الآلام التي يسيطر عليها إحساس الخوف من سطوة المجتمع وقسوته، " عتب، توبيخ، ملامة، تقريع" الذي يفضي بطبيعة الحال في ظل سلطة المماليك إلى الإيذاء بكافة أنواعه.

عندما يستبد الاغتراب العقلي بالفاضل والعالم في مجتمع يفقد القدرة على البهجة أو التعايش الآمن مع مناسبات مجتمعه " إذا تقرر ذلك كله فالمفلوكون من أهل العقل والفضل والنباهة آلام عقلية تلزمهم:(أولاها) – تشوفهم وتشوقهم إلى المكارم والمعالي ومد أعناقهم نحوها ولا شك أن الشوق إلى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب؛ ولذلك لا يبتهجون بالأعياد والمواسم بل تكون زيادة في كمدهم"([2]). يشعر الفاضل بعقله بقيمة المعالي والمكارم؛ فيسعى إلى تحقيقها في ذاته، لكنه يصطدم بمجتمعه المستبد، فيشعر بالصدمة العقلية، التي تفقد عقله القدرة على التعايش مع كل مناسبات مجتمعه، واحتفالات عصره؛ لأنه صار رافضًا لهذا المجتمع المستبد الذي خلق بداخله الاغتراب " الفلاكة " على حد تعبير الدلجي.

قد يقبل الفاضل، العالم بهذا الوضع مضطرًا ويعايشه، ولكنه لا يقوى على تحمله، خاصة إذا ما وجد نفسه دون وعي يساير النقائص الاجتماعية السائدة، وهذا ما يزيد من حجم آلامه وأوجاعه العقلية " (وثانيها) تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحياناً بحكم البشرية"([3]) إن المغترب عقليًا أو المفلوك عقليًا تزداد حدة مأساته بتفكيره في

[1]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 18

[2]) المرجع السابق، ص: 19

[3]) السابق، ص: 19

بعض السلوكيات التي يجد نفسه مضطرًا لاكتسابها من ذلك المجتمع الذي يحيا فيه، فلا يلبث أن يتدبر نفسه؛ فيبصر ما فيه من نقائص؛ فتزداد أوجاعه أو رغبته في الانسحاب من هذا المجتمع.

تظهر بعض النقائص في سلوكيات الفضلاء العقلاء المغتربين عقلًا عن مجتمعهم، الساعين للإصلاح، فينتهزها المجتمع المستبد، ويحاول الترويج لها، والانتقاص من فضل هؤلاء المفلوكين أو المغتربين؛ فيزيدون من حجم المعاناة والألم لهم " وأشد من ذلك ألما وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء، ولقد عرى أهل الفضل من ذلك شدائد"([1]).

يؤكد الدلجي رؤيته بكلام الفلاسفة فيشير إلى أن جملة الفلاسفة تؤكد أن الألم العقلي والفكري أشد من الألم الجسدي " وكلام الفلاسفة وابن سينا طافح بأن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني"([2])

كان الدلجي وهو يتحدث عن الفلاكة العقلية أو كما سمتها الدراسة الاغتراب العقلي يتحدث عن نفسه، ويصف حاله وشعوره، هذا الشعور القاسي الذي أفقده القدرة على التعايش الآمن مع مجتمعه، ومن ثم عرف عنه النقد الشديد للمجتمع والسخرية من أفعاله، وهذا ما جرَّ عليه الاتهامات بالكفر والزندقة، وإراقة دمه، فكل هذا كان من جراء شعوره بالاغتراب العقلي، الذي وضعه في مرمى سهام المنتقدين المنتقصين من قدره، ومما يؤكد رؤية الدراسة هو ما ذكره ناسبًا نفسه إلى أولئك المفلوكين " فقد منحتكم يا معشر إخواني المفاليك"([3])

كان رصد الدلجي للاغتراب في كتابه مقصدًا ضروريًا له؛ لأنه كان يسعى من أجل القضاء على الاغتراب عبر القضاء على مسببات وجوده، التي تخلقه، وترسخ له داخل

---

[1]) السابق، ص: 19

[2]) السابق، ص: 19

[3]) السابق، ص: 2

المجتمع؛ لذلك كانت عمليات الرصد المتتابعة التي قام بها في كتابه أحد أهم محاولاته في الثورة على ظاهرة الاغتراب في عصره.

" إن الاغتراب يجعل إنتاجات الإنسان تستقل عنه وتخرج من نطاق إرادته، ووعيه، ومراقبته؛ لتصير حقائق ذات سيادة مطلقة تضطهده، وتحط من قيمته لفائدة أقلية ممتازة تستغل هذا الوضع، وتحرص على دوامه، وهو وضع يصير المجرد فيه متعينًا وهميًا له من الواقعية ما يقهر به المتعين الحقيقي الذي هو الإنسان، ويظهر حين يصير الإنسان في قبضة قوى عدوانية هي من إنتاج نشاطاتهم، ولكنها ترجع عليهم وتجرفهم إلى مصاير لا إنسانية، مثل الأزمات والحروب والاضطرابات من كل نوع"([1]) لذلك كان هم الدلجي نزع الإنسان من مصير الاغتراب الذي عانى منه ومعهم أبناء عصره في ظل الوضع المتفاقم.

أشكال الاغتراب ومآلاته:

أ- الاغتراب السياسي:

عاش الدلجي في ظل الدولة المملوكية، البحرية في نهايتها، والجراكسة في مطلع حكمها، وكانت دولة المماليك تستمد شرعيتها في الحكم من الدفاع عن الإسلام والدولة معًا، وهذا ما سمح لهم بالهيمنة على الشعوب المسلمة، التي راحت تنظر لهم بوصفهم حماة الإسلام والأوطان من الأخطار، ومن نفس المنطلق بدأ التأسيس للظلم والقهر، ونزع الحقوق المدنية للشعوب، في مقابل الحماية وتوفير أمن الدولة الإسلامية، وحمايتها من أخطار الصليبين والمغول، لكنَّ هذا لم يتحقق؛ لأن الاستبداد خلق حالة من الحروب الداخلية بين المماليك؛ ففسدت الحياة الاقتصادية والسياسية، ومع هذا الفساد

[1]) الربيع، ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر، بين النسبية والمطلقية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980)، ص 198

تضخمت معاناة الشعب الذي غاص بعض أفراده في الشعور بالاغتراب السياسي، خاصة بين فئة العلماء والمفكرين والسياسيين.

يرتبط النظام السياسي المملوكي المستبد بالنظام الاجتماعي الأبوي، فالحاكم يتصرف " كأب وينظر إلى المواطنين كأبناء قاصرين؛ فيتوجه الملوك والرؤساء إلى الشعب بمناداتهم يا أبناءنا المواطنين، ويا أهلنا .. وفي مثل هذا نلاحظ أنه يشار إلى الشعب بصيغة المفرد، فيما يشار إلى الحاكم بصيغة الجمع، إن السلطة تنبع من الحاكم وانتمائه الأسري والطبقي، وليس من الشعب نفسه، ومن هنا فالجانب الرئيسي في النظام السياسي هو طابع الأبوة؛ فتسود في كل منهما العلاقات العمودية التسلطية والفوقية."([1]) فكانت سلطة المماليك تأتي في أواخر عهدهم بالحكم من كونهم طبقة المماليك الذين يملكون – وحدهم – القدرة على الحكم؛ حتى أنهم كانوا يحرمون أبناءهم من الحكم بحجة أنهم " أولاد ناس" وليسوا مماليك جلبوا للقتال فقط، كل هذا كان في عصر الدلجي وعبر عنه على سبيل الدعاء للملك المؤيد في مطلع حكمه " أن العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف. اللهم إلا أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها، فهو الذي عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقهره وإحياء معالم العلم شرعه وشعره، أبقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه ما بين المشرقين"([2]) فالدعاء السالف الذكر يؤكد ما كان يشعر به العلماء والمفكرون والساسة من اغتراب في مطلع حكم المماليك الجراكسة، هذا الحكم الهيراركي الذي خلق حالة من تراجع العلوم، وعزوف الطلاب عن العلم؛ لذلك مع تغير السلطان المملوكي كانت تسيطر حالة من التفاؤل المؤقت، الذي يتبعه أمل سرعان ما ينقطع في ظل هيراركية السلطة المملوكية الحاكمة، التي كانت تفرض هيمنتها بالقوة

[1]) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص: 93

[2]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 50

وتصنف المواطنين، ووضعهم لأنفسهم في مكانة لا للمصريين والشوام الوصول إليها؛ لكونهم ليس مماليك.

يؤكد الدلجي سيادة حالة الاغتراب الناتجة عن الوضع السياسي المضطرب، أو ما يعرف في الفلسفة الحديثة بثقافة الحقبة، فلكل حقبة ثقافة تنتجها الظروف السياسية والاقتصادية، وتخضع أحيانا لهيمنة كرسي الحكم " وأن الناس على دين ملكيهم وهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأن الملوك أسواق يحمل إليها ما ينفق فيها، وان الصنائع تدور مع النفاق وجوداً وعدماً"([1]) ينتج الاغتراب السياسي عن سيادة رؤية السلاطين المماليك، فعندما يسود الاضطراب، والعنف واللأمن، تتسلل حالة الاغتراب إلى الإنسان الذي كان يحيا في القاهرة في ظل هذا الوضع.

يعاني الإنسان المغترب من سياسة الجهل المفروضة على المجتمع، فالمجتمع المضطرب فاقد الأمن يقع فريسة الاغتراب السياسي، المبني على سيادة الجهل والتجهيل المتعمد من قبل المماليك؛ لذلك وفي ظل سيادة الجهل يقع الإنسان المفكر أو العالم أو الراغب في الحياة فريسة للاغتراب؛ نتيجة لغياب العقل الجمعي للمجتمع؛ فيصاب الإنسان بالصدمة النفسية المنتجة للاغتراب السياسي والعزلة والانفصال عن المجتمع، ويأبي أن يكون شريكًا في أية عملية سياسية للمماليك " وأيضاً فالجهل من أعظم الأدواء والأمراض، وقد سماه الله مرضاً" ([2])

تسيطر الفلاكة السياسية على كل ذي طموح أو راغب في العدل والمساواة؛ لأن طموحه يصطدم بالواقع السياسي المُغرِّب " وأيضاً فوجوه المجد والسيادة الكسيبة لا تصير دفعة وإنما تكون بالتدريج والترقي ومكابدة تنميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة

[1]) المرجع السابق، ص: 50

[2]) السابق، ص: 51

الصادين عنها والعوارض العائقة لها أمر عسير بطيء السير، فيقضي الإنسان شطر عمره أو معظمه في فلاكة وإدبار."([1])

" إن الاغتراب يجعل انتاجات الإنسان تستقل عنه، وتخرج من نطاق إرادته، ووعيه، ومراقبته؛ لتصير حقائق ذات سيادة مطلقة تضطهده، وتحط من قيمته لفائدة أقلية ممتازة، تستغل هذا الوضع، وتحرص على دوامه، وهو وضع يصير المجرد فيه متعينًا وهميًا، له من الواقعية ما يقهر به المتعين الحقيقي الذي هو الإنسان، ويظهر حين يصير الإنسان في قبضة قوى عدوانية هي من إنتاج نشاطاتهم، ولكنها ترجع عليهم وتجرفهم إلى مصاير لا إنسانية، مثل الأزمات والحروب والاضطرابات من كل نوع."([2]) يبقى الاغتراب " الفلاكة " الدافع الرئيس في كل عمل خارج عن الرؤية العقلية والشرع والدين والنجاح المجتمعي، ففي عصر الدلجي عزف العلماء والمفكرون والمواطنون عن المشاركة في أي حدث سياسي، وبقوا مشاهدين فقط لما يدور حولهم، يدعون، أو يتحسرون، أو يصمتون؛ لأنهم كانوا مغتربين مفلوكين.

" وأما الإمارة فلا ينكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار"([3]) فهذا تأكيد على دور الفعل السياسي في حدوث الفلاكة " الاغتراب" داخل النفس الإنسانية الطموحة، الساعية لأسباب الحياة، فأمور السياسية الهيراركية تصيب الإنسان بالعجز والانسحاب طواعية أو مكرهًا.

تلعب القسوة والقهر والفرض أدوارًا مهمة في خلق الاغتراب أو الفلاكة السياسية، فالإنسان يتنازل عن مراده، رغباته في سبيل رغبات الحاكم، " وكبراء الجند مستعبدون مع ملكيهم مشغولون به عن أنفسهم مقدمون لمراده على مرادهم"([4])

---

[1]) السابق، ص: 55

[2]) الربيع، ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر، بين النسبية والمطلقية، ص: 198 : 199

[3]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 55

[4]) المرجع السابق، ص: 55

تلعب السياسة دورًا مهمًا في تغيير النفوس البشرية، حتى بعد زوال الممارسات السياسية يبقى أثرها لمدد طويلة، مغيرًا الكثير من الصفات الإيجابية في النفس البشرية.

" كثرت الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضي علي بسط العلم ويقضي إلى عدم الاحتياج إليه، فإن النفوس حكوية من شأنها المحاكاة في الشر، ومهما صدر شيء وزال بقي منه أثر في النفوس، وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان"([1]) يؤكد الدلجي خطورة هيمنة رأس السلطة المملوكية على كل مناحي الحياة في دولة المماليك الجراكسة، هذه الهيمنة التي ينتج عنها تغيرات كبيرة في نفسية المواطنين، ومن ثم فساد البعض، واغتراب البعض الآخر، مما يؤدي إلى التأخر الحضاري، وتراجع قدرة الدولة على الاستمرار في التطور والنضج والقوة، وكأن الدلجي كان يتوقع في كتابه اضمحلال الدولة المملوكية وسقوطها؛ لأنها بفعل القطيعة بين السلطة والمواطن قد أخرجت المواطن من حساباتها؛ فهيمن الاغتراب السياسي على وعيه، ودفعه إلى التمادي في القطيعة السياسية بين الدولة والمواطن خاصة بين فئة العلماء والمفكرين.

وافقت رؤية الدلجي في الاغتراب السياسي رؤية النظريات الحديثة التي ترى أن حالة تامة من العجز تصيب مفاصل الدولة والسلطة عند هيمنتها الشديدة على الدولة، وفرض عنفها على المواطنين، هذا العجز الذي يؤدي في النهاية إلى هشاشة الدولة ووقوفها في حالة عجز حاضر تام، يبعدها أو يخرجها من الحركة الحضارية([2]).

[1]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ، ص: 49

[2]) انظر: الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان، بين الحلم والواقع، 89: 92

ب- الاغتراب الاجتماعي

تعد الأسرة أو العائلة حلقة مهمة من حلقات المجتمع الذي يُشكّل الدول، التي تسعى إلى التمدن والحضارة، وتحقيق طموحاتها؛ لذلك فالأسرة تعد النواة الأهم في المجتمع السوي؛ لأنها البيئة الأولى للإنسان أو المواطن داخل الدولة، هذا الإنسان الذي يتلقى تعاليمه الأولى في تلك الأسرة.

" ومن حيثُ صلة العائلة الوثيقة بالمجتمع والمؤسسات الأخرى نجد العلاقات المتبادلة بينها وبين الطبقات الاجتماعية والأديان والحركات السياسية تتصف بالتكامل والتناقض في آن واحد معًا، ففي حين تُنشيء العائلة أطفالها على ثقافة المجتمع، نجد أن الولاء العائلي قد يتناقض مع الولاء المجتمعي، أو الولاء القومي، في الوقت الذي يحض الدين على تمجيد الأسرة وطاعة الوالدين، كما أن الأسرة كثيرًا ما تحاول ترسيخ مكانتها الاجتماعية من خلال حرصها على إظهار تدينها واهتمامها بالشئون الدينية."([1]) وقد تكون الأسرة وهي تسعى لتحقيق طموحاتها سببًا في خلق الاغتراب داخل ذوات أبنائها، من خلال قسوتها وقهرها لهم، أو من خلال توحدها مع الاضطراب الحادث في الدولة آنذاك.

عاش الدلجي في حقب عصيبة، عصف فيها الفقر والاضطراب بأرجاء الدولة المملوكية في عصرها الثاني عصر المماليك الجراكسة، وعاش الدلجي مدة طفولته وصباه وشبابه في ظل هذا الفقر والاضطراب، ومن الواضح أن الدلجي عاش في أسرة فقيرة، لم تكن تمتلك الجاه والسلطة مثل عامة المصريين آنذاك؛ لذلك لجأ إلى سبيل العلم تحصيلًا وتدريسًا، ومما يؤكد ذلك مولده في قرية من قرى صعيد مصر في محافظة المنيا الحالية، وهذا ما يشير إلى أنه خضع لتربية قاسية، أثرت في سلوكياته، وخلقت منه نفسًا مغتربة أسريًا أو عائليًا من خلال محيطه القروي في صعيد مصر، وربما يكون هذا

[1]) الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص: 116

الاغتراب الأسري منذ الصغر هو الذي أنتج بعض الصفات والسلوكيات السلبية التي جعلت البعض ينفر منه، ويصفه بتهم كثيرة.

وتلك الصفات التي أُخذت عليه ربما تكون ناشئة من القسوة والقهر والإكراه في التربية؛ فنجده ينصح الآباء والسادة على السواء في خطابه " يُنهى عن إرهاف الحد على الولدان والعبيد ويؤمر بترويحهم ومدّ الطول لهم خشية عليهم من اكتساب هذه الأخلاق الذميمة"([1])

لا يكتفي الدلجي بالنصح أو التوجيه الفكري للنجاة من حدوث الاغتراب، وشعور الطفل والإنسان بالوحشة والضيق والانعزال، بل يسرد القصص التي تؤكد وجهة نظره في التربية السليمة، التي تخلق إنسانًا سويًا، خاليًا من مشاكل الاغتراب وسلوكياته " أرسل هارون الرشيد إلى خلف الأحمر لتأديب ولده الأمين، فقال له: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة فؤاده فكن له حيث وضعك أميرالمؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار واروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه أو تهمله فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالتقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة"([2]) إن تلك الرؤية تؤسس لإحدى أساليب التربية والتعليم السليمة، التي تحمي نفس الطفل، وتمنعه من الشعور بالاغتراب، فالملاينة والود، باب من أبواب تهدئة النفس، وخلق الرضا والقناعة بذاتها، والشدة والغلظة للتفريق بين الحق والباطل، الصواب والخطأ، وبهذا تكون نفس الطفل قد تفتحت على كل أساليب الحياة، في ظل رعاية تؤسس لنفس سوية راضية متعايشة في محيطها الاجتماعي.

[1]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 15

[2]) المرجع السابق، ص: 15

من الواضح أن رؤية الدلجي تؤكد للدراسة أنه قد عانى في بيئته الصعيدية في ظل دولة المماليك من المعاملة القاسية التي خلقت منه طفلًا مغتربًا نفسيًا ووجدانيًا، فارتحل من بلدته إلى العاصمة؛ ليفتش عن مصادر إثبات الذات؛ لكنه فشل في ذلك جراء تلك الصفات التي اكتسبها من اغترابه صغيرًا، وترسخت مع الاغتراب الكبير في ظل فوضى الاضطرابات في دولة المماليك.

ج - الاغتراب الاقتصادي " الفقر " :

يعد الفقر أو العوز من أهم مسببات الاغتراب الإنساني، داخل المحيط الأسري أو المجتمعي، فكل إنسان فقير في الحقيقة مهضوم الحق، يشعر باغتراب شديد، وبقلق وخوف أشد، فالفقر، والعوز المالي من وجهة نظر الدلجي من أهم أسباب الاغتراب " وأعني بالفلاكة الحالية تعذر المقاصد وانعدامها بحيث تصير الفلاكة حالا ووصفاً ذاتياً للشخص في أفعاله وأقواله دفعاً وتحصيلا حكما وتعليلا. والدليل على ذلك أن تقول: هذا مفلوك مالاً وكل مفلوك مالا فهو مفلوك حالا ينتج هذا مفلوك حالا، "([1]) يذهب الدلجي إلى أن الفلاكة المالية هي سبب كل فلاكة أخرى، فهي سبب الفلاكة النفسية، والمجتمعية، والسياسية والدينية، فكل مفلوك فقير فاقد للكثير من الأهلية النفسية والإنسانية؛ فدوما يشعر بالضآلة الذاتية أمام الآخرين، ومن ثم لا كلمة له ولا حضور في الرأي والفكر. " ويوضح ذلك أن المال عبارة عن ملك الأعيان والمنافع، والجاه عبارة عن ملك القلوب واستسخار أصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها لذي الجاه من اعتقاد الكمال والالتفات إليه"([2])

يعقد مقارنة بين الغني الذي يمتلك أسباب الحضور والانتماء إلى المجتمع الذي يحيا فيه، مؤكدًا أن من يملك المال والجاه لا يشعر بالاغتراب أو الفلاكة.

---

[1]) السابق، ص: 56

[2]) السابق، ص: 56

"والمفلوك لا جاه له ومال، وكل من لا جاه له ولا مال فهو مسلوب القدرة، لما أن الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة أو هما أسباب القدرة، ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول إلى مطلوباته، لما أن مقدوراً بلا قدرة محال، ولذلك لا يحصل مقصود المفلوك نادراً إلا بقدرة غيره من ذوي المال والجاه"([1])

لكن الملاحظة التي تستحق التوقف أمامها في رؤية الدلجي أنه نسب نفسه إلى المفاليك، وجعلهم إخوانه، ووجه لهم خطابه في كتابه، غير أنه يعود ويوجه اللائمة على الفقراء أو المفاليك في فقرهم، وكأنه كان يرى نفسه سببًا من أسباب اغترابه، ربما لنفسيته الهشة، أو لرغبته في الانسياق للعلم الذي يؤمن به، خاصة أنه ذكر في كتابه أن العلماء هم أكثر الناس فلاكة لرغبتهم في تطبيق ما يعلمون في حياتهم الواقعية.

وكذلك نستطيع أن نفهم من خلال رؤيته واتهامه للمغتربين ماليًا بأنهم السبب في حالهم هجومه وعدائه للمتصوفة، فهو يرى أن المتصوفة من أسباب الترويج للفقر بوصفه بابًا من أبواب التوكل على الله، لكن الحقيقة خلاف ذلك، وكأن الدلجي يرى أن المتصوفة سببًا في حدوث الاغتراب عن المجتمع، بترسيخهم لأفكار حب الفقر، والتواكل، والعزلة، والانقطاع عن المجتمع.

" إن الإسلام يرى أن علاج الفقر يجب أن يبدأ من الفقير نفسه أولا ثم يجيء دور المجتمع بعد ذلك بإجراءات تكميلية إن ظلت هناك حاجة لمثل هذه الإجراءات... يظهر ذلك في الاقتراحات والإجراءات والسياسات التي يوصى بها لعلاج الفقر، إنه يطلب من الدولة أن تخصص إعانات للفقراء وتأخذ هذه الإعانات تسميات مختلفة، وإن كان هذا لا يغير من طبيعتها ومن كونها إعانة، ومن كونها لا يشارك الفقير في علاج فقره، وقد يطلب التدخل في أسعار السلع أو في أسعار عوامل الإنتاج، متضمنًا بصفة خاصة

[1]) السابق، ص: 56

التدخل في الأجور بضمان حد أدنى لها، وقد يطلب التدخل من أجل إعادة توزيع الملكية"([1]).

د- الاغتراب الديني:

يعد تاريخ الإنسانية حافلًا بمسببات التنمية والتحديث والتطوير؛ لكن يبقى الدين هو الفاعل الرئيس في كل عمليات التطوير والتحديث، فلا توجد أمة في التاريخ قادت حركة نهضوية إلا قامت على القيم الدينية، حتى النهضة الأوروبية الحديثة، كانت ثورة أيضًا على القمع الكنسي الديني للحرية الإنسانية، فالدين هو الفاعل الحقيقي في كل عمليات النهضة الحضارية الإنسانية، ومن ثم غياب الدين أو حضوره المتطرف يؤثر سلبًا على حياة الإنسان، ويدفعه إلى ما يعرف بالاغتراب أو الاغتراب الديني،

" يرى فيورباخ أن الكشف عن الاغتراب لا يتم إلا من خلال فلسفة الدين، فالاغتراب أساسًا هو الاغتراب الديني، والاغتراب الديني هو أساس كل اغتراب فلسفي أو اجتماعي، نفسي أو بدني، فإذا كان الاغتراب هو انقلاب " الأنا " إلى آخر فإن هذا الانقلاب يحدث أساسًا في تحول الإنسان إلى الله قبل أن يتحول الإنسان إلى عمل أو إلي نظام أو إلى مؤسسة أو إلى كون، فالاغتراب الديني هو أسهل اغتراب وأسرعه وأكثره مباشرة."([2])؛ لأن الدين يلعب العنصر الفاعل في نفوس البشر، ومن خلاله يستطيع الحياة أو التعايش مع الطبيعة بكل صعوباتها، فالدين خاصة في الشرق يعد العنصر الفاعل في قيام الدول وسقوطها؛ لذلك هو العنصر الرئيس في خطابات السلطة سلبًا أو إيجابًا.

لم يضع الدلجي تعريفا للاغتراب الديني، أو يذكره مباشرة تحت عنوان الاغتراب أو الفلاكة الدينية، لكنه ذكره من بين الممارسات التي تؤدي إلى فساد النفوس وانسحاب الإنسان من محيطه الاجتماعي، نتيجة للظروف العامة التي تفقد المؤسسة الدينية

[1]) د. رفعت العوضي تحليل اقتصادي لكتاب الفلاكة والمفلوكون للدلجي 770 هـ 838 هـ نموذج من الفكر الإسلمي لقضية الفقراء ومشكلة الفقر، مجلة الدراسات التجارية الإسلامية , مج 2, ع 8 1986م ص: 44

[2]) حسن حنفي، الاغتراب عند فيورباخ، مجلة عالم الفكر، مج 10، ع1، 1979م، الكويت، ص: 44

قيمتها المعنوية والروحية حال خضوعها للتدجين الذي يُحدث القطيعة بين الإنسان ودينه؛ فيفقد قدرته على التواصل الإنساني في محيطه المجتمعي.

يعد الاغتراب الديني سمة من سمات العصور المضطربة أو العصور التي يسود فيها الصراع بين السلطة والمؤسسات الدينية، ومن ثم تلجأ السلطة إلى عمليات تدجين المؤسسة الدينية من خلال العطايا المالية، أو اختيار ضعاف النفوس من العلماء أو العامة لرئاسة المؤسسات الدينية، ومن الواضح أن هذه الظاهرة كانت معروفة بوضوح في ظل دولة المماليك إبان حياة الدلجي فهو يقر بذلك " وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تباع كما يباع الفرس والحمار، وهو الذي يسمونه نزولاً وإعراضاً ويوصى بها كما يوصى بالفرس والدار "([1]) يقر الدلجي بأن الوظائف الدينية في عصره قد صارت تباع وتشترى، سعيًا لتدجين المؤسسات الدينية، ودفعها لمسايرة السلطة المملوكية الحاكمة، بل صارت الوظائف ميراثًا يتوارثه الأبناء عن الآباء وكأنه عقار أو مال يرثه، وهذا ما أضعف سلطة الدين في قلوب المواطنين، ودفع البعض خاصة من العلماء إلى الاغتراب والعزلة أو اعتزال الحياة؛ لأنه شعر بالاغتراب الناتج عن القهر الديني.

إن الاغتراب الديني هو شعور الإنسان بأن ما يعتنقه ويؤمن به في واد، وممارسات الحياة في واد آخر، ويرى رؤوس المؤسسات الدينية يخالفون تعاليم الدين أو ما يقول به الدين ويقولون به في خطبهم في الصلوات والأعياد وجلسات الوعظ، سعيًا منهم وراء إرضاء السلطة التي أتت بهم في هذا المكان، مما يضعف هيبة الدين، والأخلاق، ويسهم في القطيعة بين الإنسان ودينه، التي تؤدي بطبيعة الحال إلى العزلة، وإلى الاستهانة بالدين ومعتقدات المواطنين.

" قال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي قال: كنا نمشي في بعض الأزقة إلى باب بعض المحدثين بالبصرة فأسرعنا المشي وكان معنا رجل تاجر منهم في

[1]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 50

دينه فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى حفيت رجلاه وسقط"([1]) يستشهد الدلجي بصور من صور القطيعة بين المواطن المغترب دينيًا وبين الدين، من خلال عرضه للتاجر الذي يستهزئ بالدين، واستشهد الدلجي بالتاجر كونه رجلًا ثريًا، يعي دور السلطة في شراء رجال الدين بالمال والعطايا من أجل الحكم باسمهم أو ترسيخ سلطانهم.

" فتميز الإنسان بما هو إنسان بالعلم والبيان وإلا فغير الإنسان من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول عمراً، وإنما يتميز عن الدواب والحيوان بعلمه وبيانه فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم"([2]) يشير الدلجي إلى انقلاب الإنسان إلى آخر حيواني عندما يفتقد القدرة الدينية والعلمية، ويغترب عنهما نتيجة لظروف السياسة والانحراف السلوكي للمؤسسات القائمة على الدين والسياسة، ومع هذا الانحراف يتبدل الإنسان ويصبح آخر لا يؤدي وظائفه داخل مجتمعه، " لما أن الإنسان يقدر هجوم الحاجات وطروق الآفات وسوء الظن بالعواقب كامن في النفوس، لاسيما في البلد الذي لا يكْمُل عدله ولا يتراحم أهله، ولذلك لا تمل استزادة من الدنيا"([3]) يتحول الإنسان في غياب العدل والتراحم اللذين هما من أعمدة الدين ويفقد بصيرته، فتزيد رغبته في الاستزادة من الدنيا، وبين النجاح والفشل يزداد اغتراب الإنسان الديني الذي يكسبه الصفات الحيوانية كما سبق وذكر الدلجي، ويعد هذا انقلابًا على الذات الإنسانية؛ لتتحول إلى الذات الحيوانية.

[1]) المرجع السابق، ص: 52

[2]) السابق، ص: 50 : 51

[3]) السابق، ص:57

سلوكيات الاغتراب:

إن أزمة المجتمع المدني هي من بين أهم مصادر هيمنة الدولة على المجتمع ومواطنيه، ...، وتهميش الشعب والحد من مبادراته ومشاركته في عملية التغيير، لقد حرمت دولة المماليك الشعب من حقوقه، وعطلت دوره في خدمة المجتمع، والاهتمام بالشئون العامة، والمشاركة في صنع القرارات المصيرية([1]) مما دفعه إلى الاغتراب بكل صوره وأنواعه، ذلك الاغتراب الذي أنتج سلوكيات الاغتراب وأمراضه النفسية.

عندما يشعر الإنسان بالعجز الشديد الناتج عن الشعور بالاغتراب يحاول أن يخلق لنفسه عالمًا موازيًا، يحيا فيه، بعيدًا عن تلك الضغوط والممارسات القاسية، التي تغلغلت داخله، ومن أبرز سلوكيات الاغتراب كما أشار إليه الدلجي في كتابه الفلاكة والمفلوكون:

- <u>التشنيع والافتراء:</u>

يؤدي الاغتراب " الفلاكة " إلى الشعور بالألم والوجع، والاضطراب النفسي والاجتماعي والعقلي، وتضيق نفسه فيبدأ في اختلاق المبررات لنفسه في عجزه وضيقه، ومن ثم يتجه إلى التشنيع على كل صاحب فضيلة أو نجاح، ومبرر هذا من وجهة نظر الدلجي " والسبب في تخصيص أهل الفضل بإذاعة نقائصهم وعدم إقالتهم إياها والتلبيس والافتراء عليهم مهما كانت محققة أو موهومة محتملة أن النفوس مجبولة على المساواة والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقًا عليها، فمهما وجدت سبيلا للتنقيص من كمال الكمل أو تلبيساً مقبولاً سلكته تنقيصا للكمال وطلبا للمساواة بحسب الإمكان، بخلاف الناقص في نفسه فإنه لا حاجة إلى تنقيصه"([2]) خاصة أن المناخ السائد يكون غير عادل؛ لذلك يتسرب إلى النفس أن كل من أصاب منصبًا أو صيتًا إنما كان بغير حق؛ لذلك يتم التشنيع عليه بكل الصور المتاحة، نابعًا من معاناة المغترب، ورغم كون المغترب "

[1]) انظر المرجع السابق الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع " بتصرف" ص: 75

[2]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 20

المفلوك " يحاول النزوع للمثالية وتحقيق العدالة؛ لكنه يلجأ للنقد العنيف من باب التنفيس عن مكبوتاته.

- **الانسحاب " العزلة " :**

الاغتراب في معناه العام في " الفعل اللاتيني Alienare بمعنى التسبب في فتور علاقة ودية مع شخص آخر، أو في حدوث انفصال أو جعل شخص ما مكروهًا، كما يمكن أن يشير الفعل Alienatio إلى الوضع الناجم عن حالة الانفصال نفسها؛ بمعنى أن استخدام المصطلح بهذا المعنى يقصد به حصول شقاق بين طرفين في المجتمع تكون قد ربطتهما علاقة ودية قبل هذا الشقاق، كما يقصد باستخدام مصطلح Alienatio بهذا المعنى ظاهرة الاغتراب نفسها أو نتيجة هذه الظاهرة"([1]) إن حالة الانفصام التي يسببها الاغتراب، ويخلق معها الانسحاب الإنساني من المجتمع هي ما سبق وأوضحها الدلجي في كتابه الفلاكة والمفلوكون وهو يشير إلى حالات المفلوكين، " ولما أن الإنسان مدني بالطبع في أحواله الكمالية والمصلحية فلا يمكنه أن يستقل بنفسه منفرداً عن الغير بحيث لا يستعين بأحد في أموره الكمالية والمصلحية والوجدان، والتجربة أصدق شاهد في ذلك والمناسبة والاخالة تصحح القياس والإلحاق والمفاليك يلزمهم الانفراد لزوماً لا انفكاك لهم عنه"([2]) فالمفلوك بلفظ الدلجي هو الإنسان الذي يعاني من مجتمعه ومن ثم لا يستطيع الاستمرار في التعامل معه، وينعزل عنه، أو ينسحب منه حيث الوحدة والانفراد بالنفس.

وبهذا تنعدم الفائدة المرجوة في الاجتماع بالمفلوك، ويصير وجوده في المجتمع عنصرًا معوقًا، أو مثبطًا للعزائم، بفعل ما ألم به نتيجة الفلاكة أو الاغتراب، الذي جعله يفتقد الحمية المدنية على حد تعبير الدلجي.

---

[1]) زهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظور العربي والغربي، ص: 13

[2]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 20

لا "فائدة في الاجتماع بهما، لأن حكمة التمدن مفقودة فيهما، وغاية الاجتماع بهما تضاعف الفلاكة وتكاثفها "([1])

يتبين للدراسة من خلال وصف الدلجي للمفلوكين " المغتربين " أن المجتمع الذي ينتشر فيه المغتربون " المفلوكون " يصبح مجتمعًا عاجزًا غير قادر على الإنتاج، يعاني من سيادة نزعة التشاؤم والانسحاب، وعدم المقدرة على الإنتاج، وبهذا تفقد المدينة أو الدولة طابعها المدني القائم على الاجتماع والتعاون والتشارك، وتتراجع حضارتها تراجعًا واضحًا.

النزق :

تتماس رؤى الدلجي حول الاغتراب مع العديد من المعاني الأخرى التي قد يعدها البعض بعيدة عن مفهوم الاغتراب، فنظرة الدلجي للاغتراب تبدو وسيعة تشمل العديد من المفاهيم التي تتعلق بقهر الإنسان مثل الاستلاب، اللانتماء، واللاتكيف، وفي الفكر الحديث نجد أن الماركسيين قد التقوا مع الدلجي في رؤيته للاغتراب وهذا ما يشير إلى أن تشابه الظروف قد يخلق نفس الرؤى والأفكار التي تحاول تحليل الواقع الاجتماعي للمجتمعات الخاضعة للقهر، " فالمقصود بالاستلاب هو الحرمان بمختلف أنواعه :المادي والفكري والروحي، وهذا المعنى كان يقصده ماركس عند معالجته لظاهرة الاغتراب، وهو نفسه لمن درس هذه الظاهرة من بعده"([2]) ولشمولية نظرة الدلجي للاغتراب أو الفلاكة كما يسميها، فالفلاكة من وجهة نظره هي القهر الشامل، الذي يجعل الإنسان في وطنه فقيرًا غريبًا، لا رأي له ولا قيمة، ما يفقده الشعور بالانتماء، ومن ثم الاستلاب، وينتهي إلى الاغتراب الذي يُنتج صفة النزق، الطيش أو الخفة، التي تجعل الإنسان في حالة جنون، فبرغم عقله يتصرف تصرفات تتنافي مع العقل أو الصفات الإنسانية، " (ومنها)

[1]) المرجع السابق، ص: 20

[2]) حداد صونية، نظرية الاغتراب في الفكر السوسيولوجي، مجلة الإحياء، ع 14، جامعة باتنه 1 – كلية العلوم الإسلامية، 2010م ص: 594

أن الفلاكة يلزمها القهر والإكراه، ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والتخبيب وفساد الطوية والخبث والخديعة؛ ولذلك كان اليهود موصوفين بالخبث والذل والخديعة؛ لاستحكام القهر عليهم وغلبة الإكراه على عامة أحوالهم، "([1]) يؤكد الدلجي رؤيته حول الاغتراب الذي ينتج عن القهر والإكراه والاستلاب، ومن ثم يتجسد في صورة نهائية وهي الشعور بالاغتراب، التي تنتج العديد من الأمراض الاجتماعية والنفسية، وتحيل المجتمع إلى أرض متنافرة، لا أمان ولا انتماء فيها.

" وينشأ منه ضيقة العطن والنزق وسوء العشرة والانحراف والانكماش عن الخلق"([2]) كان الدلجي وهو يصف منتجات الاغتراب يريد التنبيه إلى مسببات التراجع الحضاري، وسيادة روح الانهزام الداخلي للمواطنين، وشيوع الفساد بينهم، وكثرة الخلافات والمشاحنات، التي تفسد الأمم، وتحيلها إلى أمم فاشلة متراجعة حضاريًا.

- <u>الحقد:</u>

تزداد المعضلة الإنسانية لدى المغترب كلما زاد الشعور بالاغتراب؛ فتسيطر عليه صفات الرفض لكل ما يحيط به، والرفض يُنتج الحقد الذي يجعله كارهًا ساعيًا لإفساد كل نجاح حوله.

" ومنها) الحقد، وذلك إنه إذا استحكمت الفلاكة وعرف بها شخص أوسعه الناس إغاظة استهواناً به وعدم مبالاة بغضبه وأمناً من غائلته ومغبته، فإذا تواردت موجبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والإغماض عن كمالاته وتفريعه بزلاته وتوبيخه على تقصيره وهتك أستاره وإذاعة إسراره وجبهه بأقبح الكلام في وجهه وعدم اعتباره والمبالغة من عتبه ومعاكسته في مراده، أو عدم إسعافه به وعجزه عن الوقوف

[1]) أحمد بن علي الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، ص: 15

[2]) المرجع السابق، ص: 14

في ذلك موقف نكير، أو أن ينفس غيظه منه بنفثة مصدور أو ضربة موتور، واستبحرت أسباب الغيظ وزخرت أمواج العجز عن إطفائه بالانتقام عاد ذلك إلى الباطن وأجج فيه ناراً وتحول حقداً وضغينة وسخيمة، وتعوقه موانع الفلاكة عن أعماله فيصير ألما صرفاً ووسواسا سوداوياً ومعصية مجردة"([1])

إن الاغتراب بمفهومه الذي طرحه الدلجي يحول المجتمع إلى بؤرة صراع، تنتظر الاشتعال بصورة عنيفة في أي وقت، فيصف المغترب المملوء بالحقد " إنه إذا توالت مقتضيات الغيظ كما قدمنا وعجز المفلوك عن الانتقام تحول ذلك حقداً وضغناً كما مر، والحقد يقتضي الانتقام فإن عجز أحب أن يتشفى منه انتقام الزمان له منه، ... وبالجملة فالفلاكة يلزمها الإغاظة، والإغاظة يلزمها الحقد، والحقد يلزمه إرادة الانتقام، والعجز عن ذلك يلزمه حب زوال تلك النعمة التي بها التفاوت اللازم منه الإغاظة"([2])

يرصد الدلجي حالة الإنسان المغترب المؤلمة، حالته التي تخرجه عن كونه إنسانًا حقيقيًا، يسعى في الكون؛ لتعميره، يتعاون مع بقية الناس من أجل التعايش الآمن، يرصد الحالة التي يتحول فيها الإنسان إلى حالة معوقة للنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للدول والمجتمعات، مما يجعلها عرضة للتراجع الحضاري والتخريب المتعمد، وتقويض الجبهة الداخلية للأوطان حال تعرضها لغزو عسكري.

يصبح المغترب عدوًا لمجتمعه، ناقمًا على كل شيء، يظن نفسه صاحب الحق الأوحد، وأن الكل يسلبه ذلك الحق " حتى أن من المفلوكين من تنتهي به دعوى الاستحقاق إلى حد يرى أن النعم التي بأيدي الناس استحقاقه ومغصوبة منه، والمالك المستحق طالب لزوال ماله من أيدي الغاصبين لا محالة"([3]) وهذه السلوكيات والصفات تترسخ داخل ذات المغترب؛ فيزداد اغترابه ويتعمق، ويصبح عدوًا لمجتمعه ولنفسه.

---

[1]) السابق، ص: 15

[2]) السابق، ص: 16

[3]) السابق، ص: 16

الخاتمة

ترى الدراسة إن اغتراب الدلجي هو اغتراب المفكر والفيلسوف المثقف، عالم الدين، الذي يسعى إلى إقرار الحق، ونشر رؤيته الثائرة على الواقع الرديء، المتراجع حضاريًا، أي واقع، سواء كان في مصر أو في بلاد الشام، فهو الفيلسوف والمفكر المتمرد.

فالدلجي هو المتمرد على الواقع الذي لا يراعي الإنسانية، له ولكل المواطنين في موطنه، فلم تكن رؤية الدلجي للاغتراب رؤية نابعة فقط من تجربته الخاصة، إنما كانت رؤية ذات طابع شامل، لكل المحيطين من حوله، لذلك أكثر في كتابه من ذكر نماذج المغتربين " المفلوكين " على حد تعبيره.

تزعم الدراسة أن الدلجي كان رافضًا للاندماج في السلطة أية سلطة؛ لأنه يراها سلطة غاشمة، تحرمه والشعب من حقوقه الشرعية والقانونية، والسياسية، ولو اندمج مع تلك السلطة ما استطاع أن ينتقدها، أو يرفضها، أو يرصد ظواهر الاغتراب " الفلاكة " في مجتمعه.

رأت الدراسة حضور البعد المادي بوصفه سببًا أكد عليه الدلجي في كتابه، من أسباب الاغتراب والفلاكة المجتمعية، كما أنه لم يعارض الزهد بوصفه قيمة إنسانية، تساعد الإنسان على التجرد والخلاص من قسوة المجتمع، لكنه رفض التصوف بمفهومه السائد في عصره القائم على التواكل المفرط، الذي تسبب في التراجع الحضاري، وشيوع الاغتراب والفلاكة في المجتمع.

أكدت الدراسة اهتمام الدلجي بالجانب الروحي من الحياة، وربطه بالنواحي الدينية التي تساعد على الخلاص من الاغتراب، مؤكدًا أن تراجع الجانب الروحي بشقه الديني يعد سببًا واضحًا في شيوع الاغتراب بكل صوره، خاصة الاغتراب الديني الذي يسبب المشاكل الدينية والأخلاقية داخل المجتمع.

رأت الدراسة أن الدلجي أكد أن الجانب السياسي هو مفتاح حدوث الاغتراب " الفلاكة " في المجتمع عندما يتخلى عن الشرع، القانون، الإنسانية، ويسخر عقله وفكره لخدمه مصالحه التي تؤدي إلى حدوث قطيعة بين السلطة والمجتمع، تؤدي في النهاية إلى الاغتراب " الفلاكة "

انتهت الدراسة إلى أن الاغتراب بمفهومه المادي يؤدي إلى الاغتراب اللغوي، الذي يهجر من خلاله المواطن لغته إلى اللغات الأخرى، رافضًا لغة المجتمع الذي تسبب في اغترابه وقهره.

المصادر والمراجع

- أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدَّلْجي المصري (ت: 838هـ)، الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر القاهرة، عام: 1322
- حداد صونية، نظرية الاغتراب في الفكر السوسيولوجي، مجلة الإحياء، ع ، 14، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة باتنه 1 – ، 2010م
- حسن حماد، الإنسان المغترب عند إريك فروم، دار الكلمة، 2004م
- حسن حنفي، الاغتراب عند فيورباخ، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 10، ع1، 1979م
- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م
- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ) الأعلام، دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002
- الربيع، ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر، بين النسبية والمطلقية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980
- رفعت العوضي تحليل اقتصادي لكتاب الفلاكة والمفلوكون للدلجي 770 هـ 838 هـ نموذج من الفكر الإسلمي لقضية الفقراء ومشكلة الفقر، مجلة الدراسات التجارية الإسلامية , مج 2, ع 8 1986م

- سارتر الوجودية مذهب انساني ترجمة عبد المنعم الحفني مطبعة الدار المصرية 1964 م
- السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عبادين، سليم حسن، مكتبو مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م
- عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، (المتوفى: 927هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة: الأولى 1410هـ - 1990م
- كارل ماركس، فريدريك انجلز، حول الدين، ترجمة زهير الحكيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الاولى، 1974.
- لزهر مساعدية، نظرية الاغتراب من المنظور الغربي والعربي، دار الخلدونية الجزائر، 2013م
- محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1988م
- مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007م
- هيغل، اصول فلسفة الحق، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م